حــوار

آراء في الاستشراق الفرنسي
كما يراه «اندريه ميكيل»

د. جمال شحيد

بمناسبة اختيار الاستاذ أندرية ميكيل في «الكوليج دي فرانس»، أجرينا معه هذه المقابلة. والمعروف أن الأستاذ ميكل هو مدير الدراسات العربية في جامعة باريس الثالثة، وصاحب تسعة مجلّدات، بينها روايتان ونخصّ بالذكر منها كتاب «الجغرافية الانسانية للعالم الاسلامي حتّى منتصف القرن الحادي عشر» (١٩٦٧، وهي أطروحته لنيل دكتوراه دولة في الآداب) و «الأسلام وحضارته» (١٩٦٨) و«الأدب العربي» كما كتب أكثر من ستين مقالاً وساهم في دائرة المعارف الاسلامية ودائرة المعارف العالمية ودائرة معارف لاروس. وقد أصدر مؤخراً كتاباً بعنوان «تصوّر الأرض والعالم الخارجي عند الجغرافيين العرب». ويجب الإشارة إلى أن الأستاذ ميكل يشرف على عدد من رسائل وأطروحات يحضرها مجموعة من الطلاّب العرب يدرسون في باريس.

سؤال : يميّز أنور عبد الملك في كتابه « الجدلية الأجتماعية » (بالفرنسية) بين مدرستين رئيسيتين في الاستشراق: المدرسةالاستشراقية الكلاسيكية التي تعتبر علاقة المستشرقبالعالم العربي علاقة « شخص « تجاه » شيء »، والمدرسة الاستشراقية الحديثة التي تركّز على علاقة « شخص » تجاه « شخص » . هل تعتقدون أن هذا التصنيف يرتكز على أسس متينة ويميّز حركة الاستشراق الفرنسية ؟

أندريهميكل: كل تصنيف ينزع كثيراً إلى التبسيط . ومن المؤكد أن حركة الاستشراق الفرنسية في مجملها ، وكذلك حركة الاستشراق الانكليزية ـ على ماأعتقد ـ ارتبطتا كثيراً باهتمام العصر الاستعماري . ويجب الآن ملاحظه ذلك والتكلم عنه بدون انفعال أمّا أن نعتبر المستشرقين القدماء عملاء للأمبريالية ، ففي ذلك خطوة لن أجتازها إلا ّ بتحفـّظ . ألاحظ أنّ عدداً من ممثّلي المدرسة القديمة للاستشراق اهتمّوابمشاكل العالم العربي الاسلامي بشكل نزيه ، كما أميل إلى القول. أي ربّما أنهم ولدوا في افريقيا الشمالية وشعروا بأنّ اهتمامهم يسير في ركب هذه الحضارة ، فتمنّوا بشكل طبيعي التعمّق في دراستها .

وأعتقد أنّ العلاقة بين « شخص » تجاه « شيء » ممكنة ، ولكنني أقول إن هذا الاستشراق مرتبط ـ وهذا واضح ـ بوضع تاريخي ، كمانعلم .

ولا أعرف ما إذا كانت العلاقات بين « شخص » و« شخص » خيالية ، كما يقول لنا أنور عبد الملك . وعلى كل حال ، هذا وضع

يجب التوجّه إليه ؛ وفي هذا المجال يكون اتفاقي تاماً . وعلى صعيد آخر يجب أن تُعتبر الحضارة العربيّة في المناخ الثقافي الفرنسي كحضارة متميّزة ، كما يجب أيضاً أن تعتبر الحضارة والآداب الفرنسية كحضارة على قدم المساواة ، مع محاولة نسيان الماضي .

سؤال : وهل مازال هذا التصنيف قائماً ، في نظركم ، في الأوساط الاستشراقية الفرنسية ؟

أندريه ميكل : صراحةً ، لا أعرف . وإذا كان موجوداً . كما يؤكد ذلك عبد الملك ، فهو مدعوّ إلى الانحسار بقدر ما يخلق الأمل . أريد أن أقول : بقدر مالا يؤلّب التاريخ أشخاصاً ضد أشياء ، وبقدر مايجمع أطرافاً متساوية الحقوق في الحلبة الدولية ، سياسيّة كانت أم اقتصادية أم ثقافية . لذا أرى أنه يصعب علينا جداً أن نحكم على الحاضر لاسيمّا وأننا في عصر انتقال .

إنّ ماأعرف هو أنّ المستشرقين الشباب الذين سيخلفوننا خلال بضعة سنوات متحضرون لإجراء حوار حقيقي بين أطراف متساوية الحقوق وبين أشخاص تجاه أشخاص ، كما سبق أن قلت .

سؤال : أستاذ ميكل ، إنك باحث وأستاذ جامعة ولقد كرّست أطروحتك لدراسة الجغرافيين العرب الكلاسيكيين . ولاشك أنّ الجغرافية البشرية تهمّك بشكل أخص . فهل يمكننا القول إنك تركّز على دراسة العقليات على غرار « لوسيان غولدمان » ، من خلال التصوّر الجغرافي ؟

أندريه ميكل : نعم إن الجغرافية تهمّني لسببين . قبل كل شيء

أعني بذلك الجغرافية الإنسانية التي أدرسها بالمعنى العصري المعطى لهذه العبارة . أريد أن أؤكد أن هذه الجغرافية كلها إنسانية. ما المقصود من ذلك ؟ أريد أن أقول إن هؤلاء الجغرافيين العرب حتى القرن الخامس الهجري – شأنهم في ذلك شأن جميع المثقفين وأدباء حضارتهم – يضعون الإنسان في قلب الكون وينظرون إلى عالم الطبيعة ، الذي نطلق عليه اليوم تسمية الكائن غير المحسوس ، كعالم له علاقة بالإنسان . ويبدو ذلك على الأقل في التساؤلات المطروحة على الانسان حول العالم وأسراره وأسرار المصير الانساني . إذن الجغرافية التي أهتم بها هي جغرافية يحتلّ الانسان فيها مركز الصدارة . كان هذا فهماً لي، بيد أنّ هناك أمراً آخر اكتشفته بعد سنوات طويلة .

كنت أحسد كثيراً مؤرخي الغرب الوسيط والغرب المعاصر لأنهم في دراستهم المعمقة للحضارات لم يضعوا تحت تصرّفهم فقط كتب العلماء والأدباء و « النخبة » ، وانّما أيضاً الكتب التي تخوّلهم التعمّق في وعي الجماهير . وذلك بالرغم من أن المرء عندما يكتب كتاباً يبتعد ارتباطه الكامل بالجماهير . ووجد على الأقل مايسمّى بنوع من السكان الوسط كالرهبان الغربيين في العصور الوسطى . واكتشفت أنّ هؤلاء الجغرافيين العرب يمثلون نوعاً مادور أولئك الرهبان . أريد أن أقول إنهم أناس لم تكن لهم اهتمامات أدبية في البداية ، لأنهم كانوا يهتمونّ خاصة بالأسفار وبتدوين مايلاحظون ، ممّا أعطانا رؤية عميقة وواسعة جداً للمجتمع العربي الاسلامي الكلاسيكي. وبالرغم من أنهم كانوا يأملون ضمنياً أن تعدّ أعمالهم يوما ما أعمالاً أدبية ، الا أنهم بقوا أناساً متوسطي الثقافة وممثلين للثقافة الوسطى التي حمل لواءها الرهبان في

الغرب . فإن شئنا دراسة عقلية الغرب الوسيط وغرب النهضة مثلاً . فلن نلجأ إلى العلماء ، نظير « ليوناردو دي فينشي » بالنسبة للنهضة ، وانّما للكتّاب الوسط الذين مازالوا قريبين من الشعب والذين يستطيعون تأمين تلك الرؤية الشاملة التي تحدّثنا عنها . وكذلك بالنسبة للجغرافيين . إذ إنهم هم الذين يمثّلون تلك الثقافة الوسطى الضرورية لإجراء دراسة عن تاريخ العقليات .

سؤال : ألم يوجد هناك جغرافيون علماء طوّروا طرقاً فهمتها النخبة بشكل أخص ؟

اندريه ميكل : لنقل إنهم حاولوا ذلك . بيد أنهم لم يكونوا هكذا في عصرهم . إذ إنهم لم يدخلوا التراث الأدبي إلاّ في مابعد ، أي إننا لانجد استشهادات الجغرافيين إلاّ فقط في القرن الحادي عشر . أمّا في عصرهم فلا . ذلك أن الجغرافية لم تعتبر كعلم أو كأدب . فيوثّر فينا كثيراً شخص مثل المقدسي الذي حاول أن يدخل في أعماله بعض الشعر الرديء كي تصل هذه الأعمال إلى أوساط النخبة و « الخاصة » .

سؤال : أثناء دراستي في باريس واشرافك مع الأستاذ « ايتامبل » على أطروحتي ، كنت تركّز على القراءة البنيوية للنصّ . هل تعتقد أنّ المنهج البنيوي يلبّي طرائقية بحث تركّز على معطيات موضوعيّة محدّدة ؟

أندريه ميكل : في الحقيقة لا أعرف ماأنا . لاأعرف إن أنا بنيوي أو أتّبع طرقاً أخرى أحياناً . وفي جميع الحالات أعتقد أنّ البنيويّة قدّمت لنا شيئين أساسيين يبدوان متناقضين ولكنهما مرتبطان جداً .

إن ماعلمتنا البنيوية أو بالحري ماأكدّته لنا ـ ذلك أنني أعتقد بأنها لم تكتشف كل شيء ـ هو أن أعادت لنا حريتنا الكاملة إزاء جميع التقاليد القديمة في شرح النصوص . ومن الواضح أننا نجد أنفسنا اليوم بعيدين جداً عن الطريقة الكلاسيكية الشائعة في التدريس الجامعي الفرنسي خلال القرن التاسع عشر ، أي أن النصّ يتضمّن أوّلاً معرفة حياة الكاتب وبيئته وبالتالي جاء شرح النص غالباً شيئاً آخر بعيداً عن النص الذي لم يبق نصاً وانّما أصبح هامشاً للنص ودراسة محاذية له .

ونجد الآن نفسنا أمام ماذا ؟ نجد نفسنا نريد دراسة النصّ كموضوع حقيقي ، كموضوع بحد ذاته ـ إن لم أخش التبسيط ـ . ماأودّ قوله هو أنّ عمل الكتابة هو عمل متميّز جداً في الابداع الانساني وأنه حتّى الآن لم يعر عمليّاً اهتماماً كافياً . إذن ماعلمتنا إياه البنيوية هو النظر في النصّ ، قراءته ، اعادة قراءته ، تسجيل متأنٍ لكل مايوحي إلينا به ، دراسة النص ليس كلمة كلمة أو جملة جملة وانّما دراسته ككلّ كي نتمكّن من أن نرى كيف يتكوّن النص وما معنى عمل الابداع الأدبي وربّما أيضاً معنى الإبداع الجمالي ، وكي نرى خاصّة كيف يسري هذا النصّ في مجتمع ما مسار شخصي أو جماعي . وأظنّ عندئذ أنّ موضوعية المنهج لاتستدعي أيّ شك .

إن المبدأين اللذين نوهت اليهما أعلاه واللذين يبدوان متعارضين ، يستندان على حريّة مطلقة تجاه النصّ ، أو بالأحرى تجاه طرق شرح النصوص ، وعلى أمانة قصوى للنصّ في الوقت نفسه . ويظهر أن المبدأين شديدي التناقض ، إلا أنهما في الواقع عميقا الارتباط . فكل مرّة أتساءل

حول نص ما ، حول نص أراه أمامي ، أقول لنفسي إنني بفضل البنيوية أحيا مغامرة رائعة جداً .

سؤال : هل تعتقد أن الاتجاه الاجتماعي بارز في الاستشراق الفرنسي ؟

أندريه ميكل : لاأعرف إن كان بارزاً ، إذ يتعلق ذلك بالموقف الذي تتخذه . فإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر كميّة لاأعتقد أنه بارز . وما أريد التأكيد عليه من خلال ذلك أنّنا مازلنا نفتقر إلى أخصائيين في علم الاجتماع داخل حركة الاستشراق.وبعكس الإشاعة الرائجة نعلم أن علم الاجتماع – عندما يتقن–ه و علم جدّي يتطلب تحضيراً عميقاً . فلا يخلق عالم الاجتماع بشكل مرتجل أو من ليلة إلى ضحاها . هذا من الناحية الكمّية .

أما من ناحية الكيفيّة فلا يسعني إلاّ ذكر بعض العلماء مثل « جاك بيرك » و « مكسيم رودنسون » ، وذكرهما ليس من باب الحصر وانما فقط من باب المثال . ويبدو لي أن الاستشراق الفرنسي ليس متخلّفاً في هذا الصدد . كما وأعتقد أنه ينبغي السهر في المستقبل على ألاّ يهمل الشباب المستشرقون الذين يتلقون دراستهم في فرنسا هذا المجال الذي يبدو لي في غاية الأهميّة .

سؤال : وفي الواقع هل يهتم الشباب بهذا الموضوع ؟

أندريه ميكل : أجل عندنا عدد منهم . ولكن يجب الاعتراف أنهم مازالوا قلائل. ولكنّ من نحوا هذا المنحى هم من الصنف الممتاز .

سؤال : هل تشغل القضية الفلسطينية المستشرقين غير الكلاسيكيين بشكل أخص في مختلف اتجاهات

أبحاثهم ؟ وهل يحتل الأدب الفلسطيني مكانة عندهم ؟

أندريه ميكل : دون أدنى شك . هناك في فرنسا اختصاصي في في أدب المقاومة هذا اسمه « أوليفيه كاريّه » وترجم أشياء كثيرة عن المقاومة وأدبها ولا سيمّا لمحمود درويش . وهو مدرس جامعة ؛ بالمعنى الأفضل لهذه الكلمة .. أريد أن أقول إن « كاريه » هو مؤرخ موضوعي جداً واتخذ من القضية الفلسطينية اتجاهه الأساسي .

أما بالنسبة للسؤال العام الذي طرحته عليّ ، فلاشك أنّ القضية الفلسطينية تشغل بال المستشرقين ولا سيمّا التابعين منهم للجيل الجديد والمهتمين الآن بتاريخ الشرق الأدبي .والدليل على ذلك أن لدينا في جامعة باريس الثالثة التي أنتمي إليها شهادة في برنامج الليسانس اسمها الشعر الفلسطيني وبالأخص محمود درويش .والدليل على ذلك أيضاً أطروحات دكتوراه الحلقة الثالثة التي يقدمها لنا بعض الطلاب العرب . وهذا أمر طبيعي جداً . وبعض الطلاب الفرنسيين أيضاً . هذا في مايتعلّق باختصاصي ، الذي يعالج بالاحرى مستوى تحليل للنصوص ويبقى في إطار الدراسات الأدبية أكثر من التاريخ . أما بشأن التاريخ ، فلا يمكنني الإجابة بشكل جيدّ . لأن ليس ذلك من إختصاصي ؛ وينبغي طرح السؤال على زملائي . وعلى أي حال يمكنني أن أوكد لك أن الزمان قد تغيرّ . الزمان الذي أريد للتقليد الجامعي الغربي فيه ألا يهتمّ إلا بالأموات . ذلك الزمان الذي كان يستحيل فيه تقديم أطروحة دكتوراه إلاّ بعد أن يكون الكاتب المدروس قد توفي . ولحسن الحظ يمكننا الآن البحث في الواقع والعمل حول ما هو حيّ ومعاصر .

سؤال : هل يهتمّ الجمهور الفرنسي مثلاً بالأدب الفلسطيني ؟

أندريه ميكل : إنك هنا تطرح مشكلة عامّة ألا وهي نشر أعمال أدبية مترجمة عن العربية وتقديمها للجمهور الفرنسي . وإن شئت لن نتكلم إلا فقط عن الأعمال الأدبية المعاصرة ، لأنّ الكلاسيكية منها تنشر ويطلع عليها العلماء على الأقلّ . أما بالنسبة للأعمال المعاصرة فهناك فعلاً مشكلة نشر .

والمشكلة الأولى هو مشكلة دور النشر الفرنسية بشكل عام التي تمرّ الآن في أزمة قويّة .

والمشكلة الثانية هي بشكل أخص مشكلة ترجمة نصوص عربية معاصرة ونشرها . وحتّى السنوات الأخيرة ، وبالرغم من جهود بعض الناشرين ، لم ينتشر في الواقع إلاّ القليل . ويمكننا القول أن الناس كانوا يذكرون — حتّى بعض سنوات خلت — مثال « غاستون فييت » عندما ترجم « أيام » طه حسين ، كمثال وحيد .

وفي ما يخصني ، لقد عزمت — كاختصاصي في الأدب العربي الكلاسيكي — أن أنشر بشكل منتظم كل سنتين أو ثلاثة تقريباً ، كتاباً أساسياً مأخوذاً من الأدب العربي المعاصر . فعندي الآن تحت النشر قصائد مختارة للشاعر العراقي بدر شاكر السياب ، وآمل أن تنشر عما قريب .

وتبقى مشكلة أخيرة ألا وهي تثقيف الجمهور الفرنسي . فأنت تعلم أنّ الأدب العربي المعاصر متميزّ ، ولكن المسألة هي إطلاع هذا

الجمهور على الأسباب التاريخيّة والإجتماعية والسياسيّة أو غيرها التي تبرز هذا التميّز ، بحيث يتسنى له على الأقلّ عند بدء القراءة أن يمسك بالمقدمات الأساسيّة لفهم نصّ ما . ويفضي بنا ذلك إلى مشكلة رابعة أعم ألا وهي مشكلة مستقبل الدراسات العربية في فرنسا .

سؤال : كنت بالضبط أنوي طرح السؤال عليك لمعرفة واقع الدراسات العربية في فرنسا ومستقبلها ، كما تراها أنت .

اندريه ميكل: سأكون في إجابتي كثير الحزم والفجاجة. لن يتوفرّ مستقبل للدراسات العربية في فرنسا إلاّ بقدر ما يكرّس لها من إمكانيات . ماذا أعني بذلك ؟ أعني أن لدينا الآن في فرنسا طلبات هائلة يقدمها الطلاب الفرنسيون — وهم المعنيون الآن في حديثنا — بغية الإلتحاق بالدراسات العربية . وسآخذ حالة معينة . لقد أنشأنا العام الماضي في جامعتنا ، باريس الثالثة ، دروساً خاصة بالطلاب الذين لا يعرفون إطلاقاً اللغة العربية . ونؤمن لهم تسع ساعات أسبوعياً ، بالإضافة إلى دروسهم العادية لتحضير الليسانس ، في التاريخ والحضارة مثلاً . ونأمل أن يحصل هؤلاء الطلاب على الليسانس خلال ثلاث أو أربع سنوات . ولكنّنا ، اضطررنا إلى تحديد طلبات التسجيل بطبيعة الحال لأنّه ليس لدينا إمكانيات مثلاً لدفع أجور الساعات الإضافية وصرفها للمدرسين الذين يعطون هذه الساعات في جامعتنا . ويمكنني التأكيد أن مشكلة الإمكانيات في جامعتنا — أي توظيف المدرسين — يصبح فعلياً من يوم إلى يوم مأساوياً. وليس هذا هو مشكلة الجامعة الفرنسية ، بقدر ماهو مشكلة سياسة معنية . ويجب علينا كشف أبعاد هذه السياسة .

وأختتم القول أن الإستشراق بقي حتى الآن إختصاصاً هامشياً بالنسبة إلى اللغات التي توصف بأنها أساسيّة ، أي اللغات الأوروبية . ولكن اللغة العربية أخذت مع الزمن مركزاً صاعداً ، بيد أن الإمكانيات الموضوعة تحت تصرّفنا ما زالتْ كما كانت عليه في الحقبة القديمة للإستشراق ، أي إمكانيات هامشية .

سؤال : ولكن ألا تشجّع السياسة الفرنسية الحالية تطور الدراسات العربية ؟

اندريه ميكل: لنقل إنه حدث تحوّل في السياسة الفرنسية منذ ديغول ، وكنّا نحن المستشرقين نتمنّى هذا التحوّل منذ زمن طويل ، ولسنا بحاجة إلى توضيح ذلك . إلاّ أنه لا يخفي عليك أنّ بعض المشاكل المرتبطة نوعاً ما بالأزمة الاقتصادية العالمية أثرت في فرنسا ، بحيث أن الإمكانيات لا تتناسب دائماً مع النوايا . وأوكد أن ذلك لا يتعلق بالجامعة الفرنسية ، إذ أن الإمكانيات المادية تابعة للدولة . بالمعنى العام للكلمة . وكل ما أود قوله هو أن الجامعيين الفرنسيين لن يسكتوا عن هذه الحالة الموضوعين فيها بل سيناضلوا من أجل توفير الإمكانيات بحيث تكون اللغة العربية لغة كبرى مدرّسة (بتشديد الراء) مثلها مثل اللغات الكبرى المدرسة في الجامعة .

* *